

لا ضمانة لدستور ديموقراطي سوى الانتفاضة

الشعبية^(١)

فلاديمر لينين

ترجمة: سعيد العلمي

... هناك حديث عن الحرية ، وعن التمثيل الشعبي ، كما يخطب البعض عن الجمعية التأسيسية ، غير ان ما لا يرونه على الدوام فى كل ساعة بل وفى كل دقيقة، انه بدون ضمانات جادة لكل هذه الاشياء الجيدة فانها تبقى مجرد جمل خاوية. اما الضمانة الجادة فلا يمكن ان تأتينا بها الا الانتفاضة الشعبية الظاهرة ، الا بالهيمنة التامة للبروليتاريا والفلاحين المسلحين على ممثلي السلطة القيصرية ، الذين ، تراجعوا خطوة للوراء ، ولكنهم ابعد من ان يكونوا قد استسلموا للشعب ، وابدع من ان يكونوا قد اطيح بهم بواسطة الشعب . والى ان يتحقق هذا الهدف لا يمكن ان تكون هناك حرية حقيقية ، ولا تمثيل شعبي حقيقي ، ولا جمعية تأسيسية حقيقية لها سلطة ان تقيم نظاما جديدا في روسيا .

ما هو الدستور ؟ صحيفة من الورق سطرت عليها حقوق الشعب . ولكن ما هو الضمان الذى لدينا بأن هذه الحقوق سيعترف بها فعلا ؟ يكمن الضمان في قوة طبقات الشعب التي باتت واعية بهذه الحقوق ، بعد ان استطاعت كسبها . دعونا لا نسمح اذن بأن تضللنا الكلمات – التي تليق بثرثاري الديموقراطية البورجوازية فحسب – دعونا الا ننسى للحظة ان القوة يبرهن عليها بالانتصار في خضم النضال، واننا لازلنا حتى الان بعيديون عن ان نكون قد حققنا انتصارا كاملا بعد . دعونا لا نصدق الكلمات الجميلة ، لأننا نعيش في ازمنة لازال الصراع المكشوف فيها جاريا ، وتختبر فيها كل الكلمات والوعود على الفور في تحققها العملي ، بينما

توظف الكلمات والبيانات والوعود عن الدستور لخداع الشعب ، ولاضعاف قوته ،
وبعثرة صفوفه ، واغواءه بأن يتخلى عن سلاحه . ما من شيء يمكن ان يكون اكثر
زيفا من هذه الوعود والكلمات ، ولنا كل الفخر في ان نقول ان بروليتاريا روسيا قد
نضجت من اجل الصراع ضد كل من القوة الوحشية ، وضد الانحراف الليبرالي
الدستوري، و يؤيد ما اقول النداء الذي صاغه عمال السكك الحديدية الذي نشر عنه
حديثا في الصحافة الاجنبية (للاسف الاصل ليس لدينا) . يقول النداء ”اجمعوا
الاسلحة يارفاق” ، ”نظموا انفسكم من اجل النضال بلا كلل ، وبطاقة مضاعفة .
فقط بتسليح وحشد صفوفنا سوف نكون قادرين على الدفاع عما كسبناه ، ونحقق
استجابة تامة لمطالبنا . سيأتي وقت نهض فيه مرة اخرى كرجل واحد فى نضال
جديد اكثر عنادا من اجل الحرية التامة” .

في مثل هذا تتمثل ضماناتنا الوحيدة . مثل هذا هو الدستور الحقيقي لروسيا
الحررة! وبالفعل ، انظر الى بيان ١٧ اكتوبر وحقائق الحياة الروسية : هل يمكن
لشيء ان يكون اكثر دلالة من التضاد بين هذا الاعتراف بالدستور على الورق من
قبل القيصر ، و”الدستور” الفعلي ، اي التطبيق الفعلي لسلطة القيصر ؟ في مواجهة
هذا ، يقدم بيان القيصر وعودا لها طابعا دستوريا بجلاء . ولكنهم بينوا لنا ثمن هذه
الوعود . لقد اعلن ان لشخصية الفرد حرمة لا تنتهك ، مع ذلك فان هؤلاء الذين لا
يوافقون هوى الاوتوقراطية يبقون في السجون ، او في المنفى ، او مبعدين . لقد
اعلن عن حرية الاجتماع ، مع ذلك فان الجامعات التي كانت اول من ابدع حرية
الاجتماع فعليا في روسيا ، قد اغلقت ، وسدت مداخلها بحراس من الشرطة الجنود.
الصحافة حرة ، ولهذا فان جريدة نوافيا جيزن^(٢) المتحدثة باسم مصالح العمال ، قد
صودرت لأنها طبعت برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين . ان اماكن وزراء المائة
السود قد شغلها وزراء اعلنوا انهم يقفون في صف حكم القانون ، مع ذلك لازال
المائة السود ”شغالون” بدرجة اشد كثافة في الشوارع بمساعدة الشرطة والجيش ،
ومواطني روسيا الحرة الذين لا يروقون للبيروقراطية يعدمون ، او يضربون
ويهرسون بحرية مع حصانة الافلات من العقوبة .

بمثل هذه النماذج الجلية امام اعيننا ، يجب ان نكون عميانا ، او اعمتنا الانانية
الطبقية ، حتى نعلق اي اهمية حقيقية جادة في الوقت الراهن على ما اذا كانت هناك
وعود من الوزير (ويتي) بحق الاقتراع العام ، او ما اذا كان القيصر سوف يوقع
بيانا يدعو فيه الجمعية "التأسيسية للانعقاد" . حتى اذا جرت مثل هذه "التصرفات"
فهي لن تقرر حصيلة الصراع ، ولن يكون بمقدورها ان تخلق الحرية الفعلية
للتحريض الانتخابي ، او ان تضمن ان جمعية شعبية من الممثلين سوف يكون لها
طابعا تأسيسيا حقيقيا . على الجمعية التأسيسية ان تعطى تجسيدا قانونيا وشكلا
برلمانيا لبنية روسيا الجديدة ، ولكن قبل ان يمكن تعزيز انتصار الجديد على القديم،
ولاضفاء شكل مناسب على هذا الانتصار ، فلا بد من احراز الانتصار الفعلي ، لا بد
من تحطيم قوة المؤسسات القديمة ، ولا بد من كنس هذه الاخيرة ، لا بد من تقويض
الصرح القديم وتسويته بالارض ، وتدمير اية امكانية لأي مقاومة جادة من جانب
الشرطة وعصابتها.

حرية انتخابية تامة ، وسلطة كاملة لجمعية تأسيسية يمكن ضمانهما فقط من خلال
الانتصار التام للانتفاضة ، والاطاحة بالحكم القيصري ، على ان تحل محله حكومة
ثورية مؤقتة . وعلى كل جهودنا ان تتوجه لتحقيق هذا الهدف ، يجب ان يتصدر
تنظيم واعداد الانتفاضة كل المهام على نحو مطلق . وبقدر ما تكون الهبة منتصرة
فحسب وبقدر ما يقود النصر الى التدمير الحقيقي للعدو – بقدر ذلك فحسب سوف
تكون جمعية ممثلي الشعب شعبية ليس على الورق فحسب ، وكذلك تأسيسية بالفعل
لا بالاسم فقط .

فلتسقط كل انواع التضليل ، والزيف ، وكل التعمية ! لقد اعلنت الحرب ، وقد
اشتعل القتال ، وما نعاينه الان ليس شيئا سوى خمود او ركود مؤقت بين معركتين.
و ما من وقوف في منتصف الطريق . ان حزب "البيض" هو خداع مطلق . وان
من لا يقف في صف الثورة فهو اذن من المائة السود . لسنا نحن فقط من يقول هذا.

نحن لم نبدع مثل هذا الوصف . ان الاحبار التي لطختها الدماء تصرخ بهذه الكلمات في شوارع موسكو واوديسا ، في كرونشتادت والقوقاز ، في بولاندا وفي تومسك .

ان من لا يقف في صف الثورة فهو اذن من المائة السود . وان من لا يرغب في ان يضحى من اجل الحرية الروسية حتى لا تصبح هذه الحرية حرية الشرطة في ان تستخدم العنف ، والاكراه على شهادات كاذبة ، (والرشوة بـ ؟ المترجم) الفودكا، والهجمات الغادرة على اناس عزل من السلاح ، يجب ان يسلم نفسه وان يتأهب للمعركة على الفور . لا بد ان ننال الحرية الحقيقية ، وليس وعودا بالحرية ، و لا مزق من الورق عن الحرية . لا يتعين علينا ان ننجز فحسب خزي واذلالا لسلطة القيصر ، ولا مجرد اعتراف بحقوق الشعب من هذه السلطة ، وانما تدمير هذه السلطة ، ما دامت سلطة القيصر تعنى سلطة المائة السود على روسيا . وهذه النتيجة لا تخصنا ايضا . لقد جرى استخلاصها من وقائع الحياة ذاتها ، انه الدرس الذى علمتنا اياه احداث الزمن . انه صوت هؤلاء الذين وقفوا جانبا حتى الان بعيدا عن اي مذهب ثوري ولم يجرؤوا على اتخاذ خطوة واحدة حرة في الشارع ، وفي اجتماع ، او في البيت دون ان يعانون مخاطرة مريعة داهمة من ان يسحقوا ، يعذبوا او يمزقوا الى قطع من قبل هذه العصابة او تلك من اتباع القيصر .

و اخيرا ، لقد اضطرت الثورة هذه "القوة الشعبية" على الخروج الى العلن - قوة اتباع القيصر . لقد كشفت للنظر العام على من يعتمد حكم القيصر ، ومن هم بالفعل من يدعمون هذا النظام . واليك اياهم ، هذه القوات الضارية من الشرطة ، المدربون على الانضباط ، الجنود نصف الاذكياء ، رجال الدين المسعورون ، اصحاب الحوانيت الغلاظ ، ورعاع المجتمع الرأسمالي الذين دوختهم الفودكا . ان هؤلاء هم من يسودون الان فى روسيا مع تستر او دعم تسعة اعشار مؤسساتنا الحكومية . ها هي ذي فندييه⁽³⁾ الروسية (الرجعية . المترجم) التي تشبه فندييه الفرنسية بنفس القدر الذى يشبه به القيصر نيقولا رومانوف المغامر نابليون . كما

ان رجعتنا لم تقل كلمتها الاخيرة ايضا - لا تخطئوا اطلاقا بهذا الصدد ايها المواطنين . فهي ايضا قد بدأت للتو في عرض قواها بدقة . وهى ايضا لديها احتياطيها من "المواد القابلة للاحتراق" التي تراكمت خلال قرون من الجهل ، والاضطهاد ، والقنائة ، والشرطة كلية الجبروت . انها تقرن داخلها التخلف الاسيوي الصافي مع كل الملامح الكريهة للطرق الناعمة التي تستخدم لاستغلال وتسفيه هؤلاء الذين هم الاشد اضطهادا وتعذيبا بحضارة المدن الرأسمالية ، وقد صغروهم حتى باتوا في اوضاع اسوأ من اوضاع الحيوانات المفترسة . مثل هذه الرجعية لن تختفي استنادا لأى بيان يصدر عن القيصر ، او عن مجلس القساوسة ، او بناء على تغييرات فى المراتب العليا او الدنيا فى البيروقراطية . فهى لايمكن ان تحطم الا من قبل قوة بروليتاريا منظمة ومستتيرة ، لأن البروليتاريا وحدها ، وهى المستغلة فى وضعها ، جديرة باستنهاض كل من يليها ، وتوقف فيهم الاحساس انهم بشر ومواطنون ، وتريهم طريق الخلاص من كل استغلال . البروليتاريا وحدها هي التي يمكن لها ان تخلق خلايا جيش ثوري عات ، عات فى مثله العليا ، وفى انضباطه ، وفى تنظيمه ، وببطولته فى النضال ، بطولة لا تستطيع ان تتصدى لها اي رجعية .

هوامش

- (١) المصدر : مقتطف من مقال لينين ، وعنوانه الاصلي : بين معركتين . الاعمال الكاملة ، المجلد التاسع ، ص ص ٤٥٧ - ٤٦٦ ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٢ . الطبعة الانجليزية .
- (٢) نوافيا جيزن : ("الحياة الجديدة") - اول جريدة بلشفية علنية ؛ صدرت يوميا من ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) (٩ نوفمبر - تشرين الثاني) حتى ٣ (١٦) كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٥ فى بطرسبورغ . ومنذ عودة لينين من المهجر الى بطرسبورغ فى اوائل تشرين الثاني ١٩٠٥ ، بدأت الجريدة تصدر تحت قيادته مباشرة . كانت "نوافيا جيزن" فعلا الجريدة المركزية لحزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الروسي . وكان اقرب معاونين فيها فوروفسكي واولمينسكي ولوناتشارسكي . اشترك غوركي بقسط نشيط فى تحرير "نوافيا

جيزن“ وقدم للجريدة كذلك مساعدة مادية كبيرة . بلغ عدد النسخ الصادرة من كل عدد حتى ٨٠ ألف نسخة .

تعرضت ”نوفيا جيزن“ لعدد كبير من اعمال القمع . ومن اصل ٢٧ عددا ، صودر وأتلف ١٥ . بعد صدور العدد ال ٢٧ ، اغلقت الحكومة الجريدة . العدد الأخير ، ال ٢٨ صدر بصورة سرية . – هامش أضافه الصوت الشيوعي ، عوضا عن الهامش الأصلي الذي سقط من الناسخ الالكتروني . وقد نقله الصوت الشيوعي عن الهامش رقم ٦٩ في المجلد الأول من الجزء الأول من مختارات لينين في ثلاثة مجلدات ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، الطبعة العربية .

(٣) فندييه : فنده ، اقليم في غرب فرنسا نشبت فيه ابان الثورة البرجوازية الفرنسية بأواخر القرن الثامن عشر انتفاضة فلاحية معادية للثورة ، برئاسة النبلاء ورجال الدين . – هامش أضافه الصوت الشيوعي ، عوضا عن الهامش الأصلي الذي سقط من الناسخ الالكتروني . وقد نقله الصوت الشيوعي عن الهامش رقم ٥٩ في كراس كارل ماركس ”الثامن عشر من برومير لويس بونابارت“ ، الطبعة العربية ، دار التقدم ، موسكو .